

راحة الضمير. وراحة القلب

التعب لأجل إراحة الآخرين الراحة الأبدية

تكلمنا في المقال السابق عن أنواع من الراحة والتعب. ومن ذلك راحة الجسد وراحة النفس. والعلاقة بينهما.

وبهمنا أن نتحدث عن المعنى الحقيقي للراحة. ووسائلها ونتائجها. وكذلك التعب الباطل. والتعب النافع. والعلاقة بين التعب والراحة.

فهناك تعب يوصل إلي راحة. بينما راحة غير حقيقية توصل إلي تعب!

تعب بالجسد يوصل إلي راحة القلب. وراحة الروح

وتعب في اليوم. يوصل إلي راحة في المستقبل

وتعب شخصي يوصل إلي راحة الآخرين. فنرتاح براحتهم

وتعب في العالم الحاضر. يوصل إلي راحة في الأبدية..

* * *

ومن الناحية الأخرى. هناك ألوان من الراحة آخرها التعب

كالشخص الذي يجد راحته في الانتقام من عدوه أو من قاتل أخيه... ولا يجد راحة إلا في سفك دم هذا العدو. بينما هي راحة زائفة. وراحة مؤقتة تنتهي بالقبض عليه ومحاكمته. وربما تنتهي بإعدامه..

كذلك من يجد راحته في كأس من الخمر. تنسيه آلامه أو مشاكله إلي حين. ولكنها تضيّع صحته وسمعته وماله. وما أن يفيق منها حتي يقول تلك العبارة المأثورة "داوني بالتني كانت هي الداء"...

أو الذي يسعى إلي الكسب الحرام. ويجد راحته في الوصول إلي مزيد من المال. وإذا بها أيضا راحة مؤقتة. مهما طال بها الوقت. ثم ينكشف أخيرا. وتمسك به يد القانون. ويضيع منه كل شيء؛ ما اقتناه حراماً. وما اقتناه حلالاً. ويدخل في أتعاب الندم. وفي فقدان سمعته وحرته.

* * *

راحة الضمير

الراحة الحقيقية هي الراحة الداخلية: راحة القلب وراحة الفكر. المبنية علي راحة الضمير.

حيث يمكن أن ينام الإنسان ليله مستريحاً. دون قلق ولا اضطراب. ولا خاطر يزعجه. ولا شعور داخلي بأن هناك شخصاً يشكوه إلي الله.. فالضمير المستريح لا يقلقه شيء..

أما الإنسان الذي يخطيء خطيئة تتعب الضمير. فإن خطيئته تطارده: هل يمكن أن تنكشف؟ وكيف؟ هل ترك أثراً يؤدي إلي ذلك؟ هل سيخونه البعض ويكشفونه؟ هل ستتعبه أيدي الحساد أو أيدي الرقباء.

وتفحص وتدقق وتستنتج؟ وهل ستترتب علي خطيئته نتائج تدل عليها؟ وماذا يكون الحال وقتذاك؟ وكيف يواجه الموقف؟ وماذا يقول الناس عنه؟

ويصبح ذهنه ميدانا لجمهرة من الأسئلة. تروح وتجيء. وتقف حيناً ثم تعود. ويضطرب لها فكره. ولا يجد له راحة.

* * *

وقد يقول البعض إن هناك نوعاً من الضمائر ما أسهل أن تظل نائمة. فتريح وتستريح!

ألم نسمع ما يقوله علماء النحو عن ضمير غائب وضمير مستتر؟!

طبعاً قيل هذا في معني آخر. ولكننا هنا نستعير نفس الصفة..

نعم. ما أكثر العوامل التي تساعد الضمير علي النوم. وعلي الاختفاء من الساحة: فلا يقوم بعمله كرفيب. ولا بعمله كمندر ومويخ.

فالمتعة أو اللذة قد تغطي علي الضمير وتنيمه. وكذلك الرغبة أياً كان نوعها. والطموح الخاطيء كثيراً ما يلقي ضياباً أمام الضمير. ولا يجعله يري كما ينبغي. وحب العظمة وحب السلطة والنفوذ. وحب الظهور.. كل ذلك يزيح الضمير من طريقه حتي لا يعطل وصوله..!

الضمير إذا وقف عقبة أمام إنسان يريد تحقيق رغباته. فمن السهل إسكاته. وحينئذ يقف العقل ليقدم الحجج والبراهين!

ولكن إسكات الضمير ما هو إلا مخدر له مفعول محدود الزمن. توقظه ضمائر الآخرين. وتحل محله. وتزرعه.

* * *

إن الضمير الحي اليقظ. يجد راحته في أداء رسالته والقيام بواجبه

وأن يقوم بذلك علي أحسن وجه. مهما كلفه الأمر من جهد ومن تعب الجسد. فهو لا يهتم بتعب جسده في سبيل إكمال عمله وفي تحقيق هدفه الصالح. وكلما كانت آماله عالية. كلما تعب بالأكثر. ووجد راحة في تعبته. وكما قال الشاعر:

كلما كانت النفوس كباراً ... تعبت في مرادها الأجسادُ

وبعكس ذلك الذي يستريح جسدياً. ويتعب ضميره

كأي إنسان يهمل في أداء واجبه. ويتحمل في ألم نتائج هذا الإهمال. وكما قال الشاعر:

إذا أنت لم تزرع وأبصرت حاصداً

ندمت علي التفريط في زمن البذر

* * *

والضمير الحي الذي يبحث عن راحته. لا يجامل ذاته. كما لا يجامل الآخرين!!

إن من يكذب ليخرج من مأزق. قد يريح نفسه ويتعب ضميره. وبالمثل من يلجأ إلي خدعة توصله إلي غرضه. وفي هاتين الحالتين كليهما. لا يجامله ضميره علي الرغم من وصوله إلي غرضه.

كذلك من لا يلوم نفسه ويحاسبها علي أخطائها. بل من لا يعاقب نفسه أيضاً. هذا لا يستريح ضميره. ولا يقبل الضمير الحي أن يبرر أخطاءه. لكي تستريح نفسه راحة زائفة!

وأيضاً لا يجد الضمير راحته في ان يجامل انساناً مخطئاً. ليكسب رضاه إن كان أكبر منه مقاماً. أو لكي يحتفظ بمودته. إن كان صديقاً له. لأن المجاملة في الباطل هي ضد الحق. والضمير لا يريحه أن يقف ضد الحق. بينما هناك قاعدة روحية هامة وهي:

إن لم تستطع أن تبكت الخطأ. فلا تبررها ولا تجامله

ذلك لأن كل من يبرر الخطأ علي سبيل المجاملة إنما يشترك في المسؤولية معه.

* * *

والضمير لا يجد راحته فقط في البعد عن الشر والخطأ. إنما يجد راحته بالأكثر في عمل الخير.

فلا يمدح إنسان نفسه بقوله "أنا لم أفعل شراً في حياتي"! فهذا بلا شك اتجاه سلبي من جهة فهم الفضيلة. أما الاتجاه الايجابي فهو عمل الخير. وهو العنصر الأساسي اللازم لحياة البر.

كن كالوردة الزكية الرائحة التي عملها هو أن تهب الناس عطرأ. أيأ كان نوعهم. العطاء هو طبيعتها. لكل من يمر عليها. بل لكل من يقطفها أيضاً. بل لمن يفرکہا بين يديه: تظل تعطيه من عطرها.. فهذا هو مبدأ العطاء عندها. كجزء من الطبيعة تقتدي به.

* * *

لذلك كل يوم يمر عليك. دون أن تعمل فيه خيراً.

هو يوم يبكتك عليه ضميرك. لكي يستريح.

لقد خلقك الله لكي تعمل خيراً. وبهذا الخير يكون لحياتك وزن. وتكون لها قيمة. بل يكون لها أيضاً هدف. وعندما توزن حياتك من المجتمع الذي تعيش فيه. يكون وزنها بمقدار الخير الذي فعلته. الذي به يستريح ضميرها. وينتفع الناس..

أما الحياة التي بدون خير. فهي كالهباء. عاشت متطفلة علي الدنيا.

لكي يستريح ضميرك إذن. جاهد لكي تفعل خيراً. علي قدر ما تستطيع. وعلي قدر ما وهبك الله من طاقة. والا فيبكت نفسك.

* * *

التعب لإراحة الآخرين:

ما أعمق المثل القائل "ما عاش من عاش لنفسه فقط"

لا شك أنه لون من الأنانية. ومن الانحصار حول الذات. من يعيش لنفسه فقط. ولكن الإنسان الحق. هو الذي يشعر بلذة وراحة كلما أراح غيره. يجد راحة قلبية حينما ينقذ مسكيناً. أو يحسن إلي فقير. أو يعطف علي يتيم. أو يحل مشكلة إنسان في ضيقة. أو يعزي حزيناً. أو يهدي خاطئاً إلي طريق التوبة..

يجد راحة في كل خدمة يقدمها إلي الآخرين. ويرى في إراحتهم راحة لضميره. وراحة لقلبه. يسعد بها مهما كلفه الأمر.

* * *

ولعل أول نوع من الراحة في إراحة الآخرين

هو راحة الأبوة. وراحة الأمومة

فالأبوان يشعران براحة في كل تعبهما من أجل تربية أولادهما. مهما بذلا من جهد جسدي ومادي في العناية بهؤلاء الاطفال وصحتهم وتعليمهم ورفاهيتهم والانفاق عليهم. والعمل علي ضمان مستقبلهم.

كما تشعر الأم براحة وهي تحمل جنينا في أحشائها. لأن الله وهبها ابناً. مهما كانت متاعب الحمل والولادة. وتشعر براحة أيضا حينما تحمل طفلها علي كتفها.. وتشعر براحة. وهي تتعب في اعداد ابنتها لحفل زواجها. وتري فرحها في سعادتها.

* * *

نوع آخر هو تعب الإنسان بالأمانة في عمله لأجل الآخرين

تعب كل موظف حكومي مثلاً في سبيل اراحة الجمهور.

وأتذكر أنني قلت مرة: إن الموظف المريح للناس يجد حلاً لكل مشكلة. بينما الموظف الروتيني المتعب. فيجد مشكلة لكل حل!!

اقصد نوع الموظفين الذي يعقدون الأمور وإجراءاتها مهما بدت سهلة.

كذلك فرق بين الموظف الذي يتعب في الانتهاء من الأوراق التي بين يديه. لكي يقدم لكل صاحب طلب أوراقه في موعدها.. وبين الموظف الذي يهمله "راحته!" ولا يبالي بمصالح الناس. ويسوف في المواعيد. وكأنه يذل الناس. وقد يبرر تأخيره باللوائح!!

* * *

المجتمع أيضا أمثلة رائعة من الذين يتعبون.

بل يبذلون أنفسهم لأجل راحة الغير.

* نذكر من بين هؤلاء عمال إطفاء الحرائق. الذين يلقون بأنفسهم وسط النيران لكي ينقذوا أنفسهم من خطر الموت. ويجدون راحة عميقة جدا كلما أنقذوا نفساً. أو تمكنوا من إطفاء حريق.

* أيضا عمال إنقاذ الغرقى من الموت

* وكذلك رجال الإسعاف الذين يحملون المرضى بكل حرص. وينقلونهم إلي المستشفيات بكل سرعة. لإنقاذ حياتهم.

* ونذكر رجال المرور. الذين يقفون ساعات طويلة ببقطة شديدة. لكي يدبروا حركة المرور. وينظموها بطريقة تسهل المواصلات وتمنع الحوادث. وهم لا يبالون بتعبهم من أجل راحة غيرهم.

* * *

نذكر أيضا القادة والرعاة وكل من هم في مسئولية

* اولئك الذين يسهرون الليل والنهار. ويكثرن من الاسفار. ويعبرون الأجواء والبحار لأجل راحة شعوبهم وسلامة أوطانهم. ويتقابلون ويتفاوضون. ويدرسون ويناقشون. بكل حرص ودقة وبكل أمانة في حمل المسئولية. كل ذلك لأجل الوطن والمواطنين.

* ونذكر بمناسبة أعياد يوليو: الجنود الذي عبروا القناة. معرضين أنفسهم لكافة الأخطار. ليحققوا نصر أكتوبر. ويستعيدوا للوطن أراضيه. ونذكر أيضا شهداء الوطن الذين بذلوا حياتهم لأجله..

* ونذكر جميع الرعاية الذين يسهرون ويتعبون لأجل رعيتهن.

* * *

نذكر أيضا كل الذين يحملون آلام غيرهم

* نذكر الأطباء الذين يبذلون كل الجهد لإنقاذ مرضاهم من آلامهم وأمراضهم. ويسهرون عليهم ليطمئنوا علي صحتهم.

ونذكر معهم الممرضات اللاتي يقمن في اهتمام شديد بمناوبة علاج المرضى حسب أوامر الأطباء. ويصبح المرضى وديعة في ايديهن.

* نذكر ايضا العلماء والمكتشفين واصحاب البحوث وكل رجال العلم. الذين بمتابرتهم علي العلم في ذكاء خارق للعادة. أمكنهم أن يريحوا الناس في كافة مناحي الحياة ويسهلوها لهم.

* نذكر أيضا خدام الحالات الاجتماعية. والذين يتعبون لأجل الفقراء. والأيتام. والمسنين. والمعوقين.. لكي يكفلوا لكل هؤلاء الحياة الطيبة والراحة. بكل ما يبذلونه من جهد.

كل اولئك يتعبون لأجل غيرهم. ويجدون راحة في تعبهم كما يجدون راحة أيضا عندما يجنون ثمار تعبهم.

